بسم الله الرحمن الرحيم

قال رَحِمَهُ اللهُ: **مدارُ الدين على هذه القواعد الأربعة، وهي: الحبُّ والبُغض**، ويترتَّبُ عليهما **الفعلُ والتَّركُ** والعطاء والمنع.

فمن استكمل أن يكون هذا كله لله استكمل الإيمان، وما نقص منها أن يكون لله عاد بنقص إيمان العبد.

والمقصود أنَّ ما تقرُّ به العين أعلى من مجرد ما يُحبُّه، فالصلاة قُرَّةُ عيون المُحبِّين في هذه الدنيا لما فيها من مُناجاة مَن لا تَقَرُّ العيُون ولا تطمئن القلوب ولا تسكنُ النّفوسُ إلاَّ إليه، والتَّنعُّم بذكره والتَّذَلّل والخضوع له والقرب منه، ولا سيما في حال السُّجود، وتلك الحال أقرب ما يكون العبد من ربه فيها، ومن هذا قول النبي ﷺ: «**يا بلال! أرِحْنا بالصَّلاةِ**»[1] فأعلَمَ بذلك أنَّ راحتَه ﷺ في الصَّلاة كما أخبرَ أنَّ قُرَّة عينه فيها؛ فأين هذا من قول القائل: (نصلي ونستريح من الصلاة؟!).

فالمُحبّ راحتُه وقرَّةُ عينهِ في الصَّلاة، والغافل المُعرض ليس له نصيبٌ من ذلك، بل الصلاة كبيرةٌ شاقَّةٌ عليه، إذا قام فيها كأ نَّه على الجمر حتى يتخلَّص منها، **وأحبُّ الصلاة إليه أعجلُها وأسرعُها**، فإنَّهُ ليس لهُ قُرَّةُ عينٍ فيها ولا لِقَلبِه راحةٌ بها، والعبدُ إذا قرَّت عينُه بشيءٍ واستراحَ قلبه بِهِ فأشَقُّ ما عليه مفارقتُه، والمتكلِّف الفارغُ القلبِ من الله والدَّار الآخرة المبتلى بمحبَّةِ الدُّنيا أشقُّ ما عليه الصَّلاة، وأكرهُ ما إليه طُولها **مع تفرُّغِه وصحته وعدَم اشتغالِه.**

ومِمَّا ينبغي أن يُعلَم أنَّ الصَّلاة التي تقرُّ بها العَينُ ويَستَريحُ بها القلبُ هي التي تجمعُ ستَّة مشاهد:

المشهد الأول: الإخلاصُ: وهو أن يكونَ الحاملُ عليها والدَّاعي إليها رغبة العبد في الله، ومحبته له وطلبُ مرضاته، والقُرب منه والتودُّد إليه وامتثالُ أمره، بحيث لا يكون الباعث له عليها حظًا من حظوظ الدُّنيا ألبتة، بل يأتي بها ابتغاءَ وجهِ ربه الأعلى، محبةً له وخوفًا من عذابه ورجاءً لمغفرته وثوابه.

المشهد الثاني: مشهدُ الصِّدق والنُّصح، وهو أن يُفرِّغ قلبَه لله فيها، ويستفرغ جُهده في إقباله فيها على الله، وجمع قلبِه عليها، وإيقاعِها على أحسن الوجوه وأكملها **ظاهرًا وباطنًا**، فإنَّ الصَّلاة لها ظاهرٌ وباطنٌ، **فظاهِرُها** الأفعال المُشاهدة والأقوال المسمُوعة، **وباطِنُها** الخُشُوع والمُراقبةُ وتفريغُ القلب لله والإقبال بكليَّته على الله فيها بحيث لا يلتفتُ قلبُه عنه إلى غيره. فهذا بمنزلَة الرُّوح لها، والأفعال بمنزلة البَدن، فإذا خلت من الروح كانت كبدنٍ لا رُوحَ فيه.

أفلا يستحي العبد أنْ يواجهَ سيِّدهُ بمثل ذلك! ولهذا تُلَفُّ كما يُلَفُّ الثَّوبُ الخَلِقُ ويُضرَبُ بها وجه صاحبِها، وتقول: (ضيَّعك الله كما ضيَّعتني). والصلاة التي كَمُل ظاهِرُها وباطِنُها تصعدُ ولهَا نُورٌ وبُرهَانٌ كنُور الشَّمسِ حتَّى تُعرَضَ على الله فيرضَاهَا ويقبَلَها وتقول: (حَفِظَكَ الله كمَا حفِظتني).

المشهد الثالث: مشهدُ المُتابعَةِ والاقْتِدَاء، وهو أنْ يحرِصَ كلَّ الحِرصِ على الاقتداء في صلاته بالنبي ﷺ ويُصليَ كما كان يُصلِي، ويُعرِضَ عمَّا أحدَثَ النَّاسُ في الصَّلاة من الزيادة والنقصَان، والأوضاع التي لم يُنقَل عن رسول الله ﷺ شيءٌ منها ولا عن أحدٍ من أصحابِه رضي الله عنهم. ولا يقفَ عند أقوالِ المُرخِّصِين الذين يقِفُون مع أقلِّ ما يعتقدون وجوبَه، ويكون غيرهم قد نازعهم في ذلك وأوجب ما أسقطوه. ولعلَّ الأحاديث الثابتة والسنَّة النبوية من جانبه ولا يلتفتون إلى ذلك، ويقولون: (نحنُ مُقلِّدون لمذهَب فُلان!). وهذا لا يُخَلِّصُ عند الله ولا يكون عُذراً لمن تَخلَّف عمَّا عَلِمَهُ من السُّنة عِنده، فإنَّ الله سبحانه إنَّما أمر بطاعة رسوله واتِّباعه وحدَهُ ولم يأمر باتِّباع غيره، وإنما يُطاع غيرُه إذا أمرَ بما أمرَ به الرَّسُول. وكلّ أحدٍ سوى الرَّسُول ﷺ فمأخوذٌ من قوله ومتروك.

وقد أقسم الله سبحانه بنفسه الكريمة أنَّا لا نؤمنُ حتى نُحَكِّم الرسول فيما شجر بيننا ونقاد لحكمه ونُسَلِّم تسليما. فلا ينفعنا تحكِيمُ غيره والانقياد له ولا يُنجِّينا من عذاب الله ولا يقبلُ منَّا هذا الجواب إذا سمعنا نداءَه سبحانه يوم القيامة: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]، فإنّه لا بُدَّ أن يسألنا عن ذلك ويُطالبنا بالجواب. قال تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦﴾ [الأعراف]

وقال النبي ﷺ: «**أوحي إلي أنكم بي تُفتنون وعني تُسألون**»[2] يعني المسألة في القبر. فمن انتهت إليه سُنَّةُ رسول الله ﷺ وتركها لقول أحد من الناس فَسَيَرِدُ يوم القيامة ويعلَم.

المشهد الرابع: مشهدُ الإحسان وهو مشهدُ **المُراقبة**، وهو أن يعبُد الله كأنَّه يراه، وهذا المشهد إنَّما ينشأ من **كمالِ الإيمان بالله وأسمَائِه وصفاتِه**، حتَّى كأنَّهُ يرى الله سُبحانَه فوقَ سَمَاواته مُستويـًا على عرشه، يتكلَّمُ بأمرِه ونهيِه، ويدبِّرُ أمرَ الخليقَة، فينزلُ الأمر من عنده ويصعدُ إليه، وتُعرضُ أعمالُ العبادِ وأرواحُهم عند المُوافاة عليه، فيشهد ذلك كله بقلبه ويشهد أسماءه وصفاته ويشهد قيُّومًا حيًّا سميعًا بصيرًا عزيزًا حكيمًا آمرًا ناهيًا يحبُّ ويبغضُ ويرضَى ويغضَبُ ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو فوق عرشه لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالِ العباد ولا أقوالِهم ولا بواطِنِهم بل ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر]

ومشهدُ الإحسانِ أصلُ أعمالِ القُلوب كُلِّها، فإنَّهُ يوجب الحياءَ والإجلالَ والتَّعظيمَ والخشيَةَ والمحبَّة والإنابَةَ والتوكُّل والخُضوعَ لله سُبحانه والذَّلَّ له، ويقطعُ الوسواس وحديثَ النَّفس ويجمعُ القلب والهَمَّ على الله. **فحظّ العبدِ من القُرب من الله على قدر حظِّه من مقام الإحسان،** وبحسبه تتفاوت الصلاة حتى يكون بين صلاة الرَّجُلين مِنَ الفضل كما بين السَّماءِ والأرض، وقيامُهما وركوعُهما وسجودُهما واحدٌ.

---

(١) رواه أحمد (٢٣٠٨٨)، ورواه أبو داود (٤٩٨٧) بلفظ: «**يا بلال! أقم الصلاة أرحنا بها**»، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٩٢).

(٢) رواه أحمد (٢٥٠٨٩) بلفظ «**فأَمَّا فِتْنَة القَبْرِ: فَبِي تُفْتَنُون، وَعَنِّي تُسْأَلُون**»، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٦١).

المشهد الخامس: مشهدُ **المِنَّة**، وهو أن يشهدَ أنَّ المِنَّة لله سُبحانه كونُه أقامَه في هذا المقام، وأهَّلَه له، ووفَّقَه لقيام قلبه وبدنه في خدمتِه، فلولا الله سُبحانه لم يكُن شيءٌ من ذلك كما كان الصحابة يحدون بين يدي النبي ﷺ فيقولون: (**والله لولا الله ما اهتَدينا ** ولا تصدَّقنا ولا صَلَّينا**)

قال الله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[الحجرات]. فالله سبحانه هو الذي جعل المسلم مُسلمًا والمصلي مُصليًا، كما قال الخليل: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾[البقرة:١٢٨]، وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾[إبراهيم:٤٠].

فالمنَّة لله وحدَه في أنْ جعلَ عبدَهُ قائمًا بطاعتِه وكان هذا من أعظم نعمه عليه، وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣]، وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات:٧]، **وهذا المشهدُ مِن أعظَمِ المشاهِد وأنفعِها للعبدِ، وكُلَّما كانَ العبدُ أعظمَ توحيدًا كانَ حظّه من هذا المشهد أتَم.**

وفيه من الفوائد: أنَّه يحول بين القلب وبين العجب بالعمل ورؤيته، فإنَّه إذا شهِد أنَّ الله سُبحانه هو المانّ به الموفِّقُ له الهادي إليه، شغلَهُ شهودُ ذلك عن رؤيته والإعجاب به، وأن يصول به على الناس فيرفع من قلبه، فلا يُعجب به ومِنْ لسانه فلا يَمُنَّ به ولا يتكثَّر به وهذا شأن العمل المرفوع.

ومن فوائده: أنَّه يضيف الحمد إلى وليِّه ومستحقِّه فلا يشهد لنفسه حمدًا بل يشهده كلّه لله، كما يشهد النعمة كلّها منه، والفضل كلّه له، والخير كلّه في يديه. **وهذا من تمام التَّوحيدِ، فلا يستقرّ قدمُه في مقام التوحيد إلا بعلم ذلك وشهوده** فإذا علمه ورسخ فيه صار له مشهدًا، وإذا صار لقلبه مشهدًا أثمرَ لهُ من المحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وطاعته ما لا نسبة بينه وبين أعلى نعيم الدنيا ألبتة،

وما للمرء خيرٌ في حياته إذا كان قلبه عن هذا مصدودًا وطريق الوصول إليه عنه مسدودًا، بل هو كما قال تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾[الحجر]

المشهد السادس: مشهدُ **التَّقصِير**، وأنَّ العبد لوْ اجتَهد في القيام بالأمر غاية الاجتهاد، وبذل وسعه فهو مقصِّرٌ، وحقُّ الله سُبحانه عليه أعظم، والذي ينبغي له أن يقابل به من الطاعة والعبودية والخدمة فوق ذلك بكثير، وأنَّ عظمته وجلاله سبحانه يقتضي من العبودية ما يليق بها. وإذا كان خدم الملوك وعبيدهم يعاملونهم في خدمتهم بالإجلال لهم والتعظيم والاحترام والتوقير والحياء والمهابة والخشية والنصح بحيث يفرغون قلوبهم وجوارحهم لهم، فمالك الملوك ورب السموات والأرض أولى أن يعامل بذلك، بل بأضعاف ذلك. وإذا شهد العبد من نفسه أنه لم يوفِّ ربَّه في عبوديته حقه ولا قريباً من حقِّه عَلِم تقصيرَه، ولم يسعه مع ذلك غير الاستغفار والاعتذار من تقصيره وتفريطه وعدم القيام بما ينبغي له من حقِّهِ وأنَّهُ إلى أن يغفر له العبودية ويعفو عنه فيها أحوج منه إلى أن يطلب منه عليها ثوابا وهو لو وفاها حقها كما ينبغي لكانت مستحقة عليه بمقتضى العبودية...

ثمَّ قال رحمه الله: **وملاكُ هذا الشأن أربعةُ أمور نيةٌ صحيحةٌ وقوةٌ عاليةٌ يقارنها رغبةٌ ورهبةٌ**، فهذه الأربعة هي قواعد هذا الشأن، ومهما دخل على العبد من النقص في إيمانه وأحواله وظاهره وباطنه فهو من نقصان هذه الأربعة أو نقصان بعضها.

فليتأمل اللبيب هذه الأربعة الأشياء، وليجعلها سيره وسلوكه، ويبني عليها علومه وأعماله وأقواله وأحواله. فما نتج من نتج إلا منها ولا تخلف من تخلف إلا من فقدها.

والله أعلم، والله المستعان وعليه التكلان وإليه الرغبة وهو المسؤول بأن يوفقنا وسائر إخواننا من أهل السنة لتحقيقها علما وعملا إنه ولي ذلك والمان به وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المصدر: «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» صفحة (٣٦-٥٣)

العلم الصافي

يا بلال! أقم الصلاة أرحنا بها

مشاهد الصلاة

التي تقر بها الأعين

منتقاة من مؤلفات

العلامة الإمام شيخ الإسلام

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر

ابن قيم الجوزية

المتوفى سنة ٧٥١ هجرية

رحمه الله تعالى

شارك في نشر هذه المطوية لتكون لك حسنة جارية